وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة لانه يجتمع اليهم سمك النيل وسمك البحر الملح ولا يفى القول بنعتها لكثرة أصنافها واختلاف أشكالها وألوانها ومنها الصنف المسمى عندهم ثعبان الماء وهى سمكة كالحية سواء. طولها مابين ذراع الى ثلاث أذرع، ومنها السرب وهى سمكة تصاد من بحر الاسكندرية يحدث لآكلها أحـــلام ردية مفزعة، ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها والاحدوثات المضحكة فيها مشهورة

ومن ذلك الترسة وتسمى لجاة وهى سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير إلا ان جفنتها أعنى عظم ظهرها كالترس له أفاريز خارجة عن جسمها نحو شبر، ورأيتها بالاسكندرية يقع لحمها ويباع كلحم البقر وفى لحمها ألوان مختلفة مابين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الالوان وتخرج من جوفها نحو أربعمائة بيضة كبيض الدجاج سواء الا أنه لين القشر واتخذت من بيضها عجة فلما جمد صار ألوانا مابين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بألوان اللحم، ومن ذلك السرلينس وهو صدف مستدير الى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء ذات نكتة سوداء يعافها الناظر وفيه ملوحة عذبة زعموا ويباع بالكيل.

الفصل الرابع

فى اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة

اما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشىء لم ار ولم اسمع بمثله فى مثلها فاقتصر على اعجب ما شاهدته

فمن ذلك الاهرام، وقد اكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها. وهى كثيرة العدد جداً وكلها بين الجيزة وعلى سمت مصر القديمة وتمتد فى نحو مسافة يومين وفى بوصير منها شىء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن واكثرها حجر وبعضها مدرج واكثرها مخروط املس، وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت فى زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب على يدى قراقوش بعض الامراء وكان خصيا روميا سامى الهمة فكان يتولى عمائر مصر وهو الذى بنى السور

من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التى على المقطم ، وهو ايضا الذى بنى القلعة وانبط فيها البيرين الموجودتين اليوم ، وهما ايضا من العجايب ويزل اليهما بدرج نحو ثلثماية درجة ، واخذ حجارة هذه الاهرام الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة وهذه القناطر من الابنية العجيبة ايضا ومن اعمال الجبارين وتكون نيفا واربعين قنطرة . وفى هذه السنة وهى سنة سبع وتسعين وخمسماية تولى امرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء ان يحتبس الماء فيروى الجيزة فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت ، ومع ذلك فلم يرو ما رجا ان يروى . وقد بقى من هذه الاهرام المهدومة قلبها وحشوتها وهى ردم وحجارة صغار لا تصلح للقناطر فلاجل ذلك تركت

واما الاهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم فثلاثة اهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة زواياها متقابلة نحو الشرق واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد وبهما اولع الشعراء وشبهوهما بنهدين قد نهدا فى صدر الديار المصرية وهما متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيض . واما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الاحمر المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن الطويل وتجده صغيراً بالقياس الى ذينيك . فاذا قربت منه وافردته بالنظر هالك مرآه وحسر الطرف عند تأمله ، وقد سلك فى بناية الاهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على مر الزمان بل على مرها صبر الزمان . فانك اذا تبحرتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد افاضت عليها اشرف ما عندها لها والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلا هى غاية امكانها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم وذلك ان وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة ، ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله فى وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة اخرى خارجة عنه يتساقط عليها . ومن عجيب وضعه انه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية

وليست كذلك عند ما تلقى السطح . ولنرجع الى ذكر الهرمين العظيمين فان المساح ذكروا ان قاعدة كل منهما اربع مائة ذراع طولا فى مثلها عرضا ، وارتفاع عمودها اربع مائة ذراع وذلك كله بالذراع السوداء وينقطع المخروط فى اعلاه عند سطح مساحته عشر اذرع فى مثلها واما الذى شاهدته من حالها فان راميا كان معنا رمى سهما فى قطر احدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة . وخبرنا ان فى القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلا منهم ورضخنا له بشىء فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا فى الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأتوا به وكانت سابقة كنت أمرته أنه إذا استوى على سطحه قاسه بعمامته فلما نزل ذرعنا من عمامته مقدار ماكان قاس فكان احدى عشرة ذراعا بذراع اليد ، ورأيت بعض أرباب القياس قال ارتفاع عمودها ثلثماية ذراع ونحو سبعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات الاضلاع طول كل ضلع منها أربع مائة ذراع وستون ذراعا . وأرى هذا القياس خطأ ولوجعل العمود أربع مائة ذراع لصح قياسه . وان ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسى وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة واسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من يلجه ويتوغله ، فان ناساً كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه فيوغلون فى أعماقه ولا بد ان ينتهوا الى مايعجزون عن سلوكه ، وأما المسلوك فيه المطروق كثيراً فزلاقه تفضى الى اعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر ، وهذا المدخل ليس هوالباب المتخذ له فى اصل البناء وانما هو منقوب نقبا صودف اتفاقا ، وذكر ان المأمون هو الذى فتحه وجل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا الى البيت الذى فى اعلاه فلما نزلوا حدثوا بعظيم ماشاهدوا وأنه مملوء بالخفافيش وأبوالها حتى يكاد يمنع السالك ويعظم فيها الخفاش حتى يكون فى قدر الحمام وفيـــه طبقات . ورواءه نحو اعلاه وكأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء وولجته مرة اخرى مع جماعة وبلغت نحو ثلثى المسافة فاغمى على من هول المطلع فرجعت برمق

وهذه الاهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها مابين عشر اذرع الى عشرين ذراعا وسمكه مابين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك والعجب فى

وضع الحجر بهندام ليس فى الامكان اصح منه بحيث لاتجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ماصفته ولا ماهو . وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه يعلم من يعرفه وهذه الكتابات كثيرة جداً حتى لو نقل ماعلى الهرمين فقط الى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة وقرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين هو قبر اغاذيمون والآخر قبر هرميس ويزعمون انهما نبيان عظيمان وان اغاذيمون اقدم واعظم

وأنه كان يحج اليهما ويهوى نحوهما من أقطار الارض . وقد وسعنا القول فى المنقول من الكتاب الكبير فمن أراد التوسعة فعليه ، فان هذا الكتاب مقصور على المشاهد

وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف لما استقل بعد أبيه سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الاهرام فبدأ بالصغير الاحمر وهو ثالثة الأثافى

فأخرج اليه الحلبية والنقابين والحجاريين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكلهم بخرابه فخيموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين ، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والإمحال ، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والاشطان فاذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال وتزلزل الأرض ويغوص فى الرمل فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الاسافين بعد ماينقبون لها موضعاً ويبيتونها فيه فيتقطع قطعاً فتسحب كل قطعة على العجل حتى تلقى فى ذيل الجبل وهى مسافة قريبة فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهت عظامهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية بل كانت غايتهم ان شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة ، ومع ذلك فان الرائى لحجارة الهدم يظن أن الهرم قد استوصل فاذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شىء وانما جانب قد كشط بعضه . وحين ماشاهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت له لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه

هل كان يمكنكم ذلك باقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم اضعافه

وبازاء الاهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الاغوار متداخلة وفيها ماهو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لهل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكثرتها وسعتها وبعدها ، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الاهرام ، وأما مقاطع حجارة الصوان الاحمر فيقال أنها بالقلزم وبأسوان . وعند هذه الاهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلما ترى من ذلك شيئاً ألا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول

وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الارض فى غاية العظم يسميه الناس أبا الهول

ويزعمون ان جثته مدفونة تحت الارض ويقتضى المقياس ان تكون جثته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعا ، وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما ، وسألنى بعض الفضلاء ما أعجب مارأيت ، فقلت تناسب وجه أبى الهول فان أعضاء وجهه كالأنف والعين والاذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فان أنف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الانف لرجل كان مشوها به ، كذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار وهيئة بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة . والعجب من مصوره كيف قدر ان يحفظ نظام التناسب فى الاعضاء مع عظمها وانه ليس فى أعمال الطبيعة مايحاكيه وينقله

ومن ذلك الاثار التى بعين شمس وهى مدينة صغيرة يشاهد سورها محدقا بها مهدوما ويظهر من أمرها أنها قد كانت بيت عبادة وفيها من الاصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعا وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم وقد كان بعض هذه الاصنام قائماً على قواعد وبعضها قاعدا بنصبات عجيبة واتقانات محكمة وباب المدينة موجود الى اليوم وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير الانسان وغيره من الحيوان وكتابات كثيرة بالقلم المجهول وقلما

يرى حجراً غفلا من كتابة أو نقش أو صورة ، وفى هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون وصفة المسلة ان قاعدة مربعة طولها عشر أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا قد وضعت على أساس ثابت فى الارض ثم أقيم عليها عمود مربع ينيف طوله على مائة ذراع يبتدىء من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهى الى نقطة ، وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى ثلاث أذرع منها كالقمع وقد تزنجر بالمطر وبطول المدة أخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة ، والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت احدى المسلتين وقد كسرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها ثم ان حولها من المسال شيئاً كثيراً لا يحصى عددها مقادير ها على نصف تلك العظمى أو ثلثها وقلما تجد فى هذه المسال الصغار ماهو قطعة واحدة بل فصوصا بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها

ورأيت بالأسكندرية مسلتين على سيف البحر فى وسط العمارة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمتين

وأما البرابى بالصعيد فالحكاية من عظمها واتقان صنعتها وأحكام سورها وعجائب مافيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع أحكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر وهى من الشهرة بحيث تغنى عن الاطالة فى الصفة

ورأيت بالاسكندرية عمود السوارى وهو عمود أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جداً شاهق الطول ، لا يبعد ان يكون طوله سبعين ذراعا وقطره خمس أذرع وتحته قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام يفتقر الى قوة فى العلم برفع الاثقال وتمهر فى الهندسة العملية وخبرنى بعض الثقاة أنه قاس دوره فكان خمساً وسبعين شبراً بالشبر التام

ثم انى رأيت بشاطىء البحر مما يلى سور المدينة أكثر من أربع مائة عمود مكسرة انصافا واثلاثا حجرها من جنس حجر عمود السوارى على الثلث منه أو الربع ، وزعم أهل الأسكندرية قاطبة انها كانت منتصبة حول عمود السوارى وان بعض ولاة الاسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف بن أيوب فرأى هدم

هذه السواري وتكسيرها والقاءها بشاطئ البحر زعم ان ذلك يكسر سورة الريح عن سور المدينة أو ان يمنع مراكب العدو ان تستند اليه وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة

ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الاعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده وانه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنه

وأما المنارة فحالها مشهور يغني عن وصفها وذكر ذو العناية ان طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا

وقرأت بخط بعض المحصلين انه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنتين وستين ذراعا وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعا ونصف ذراع فصارت جملة ذلك خمسا وثمانين ذراعا وثلثي ذراع وطول القاعدة السفلى اثنتا عشرة ذراعا وطول القاعدة العليا سبع اذرع ونصف ذراع ، وقاس ايضا المنارة فوجدها مائتي ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع واحدى وعشرين ذراعا والطبقة الثانية مثمنة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع

ومن ذلك الاثار التي بمصر القديمة وهذه المدينة بالجيزة فويق الفسطاط وهي منف التي كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر ، واياها عنى بقوله تعالى عن موسى عليه السلام « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » وبقوله تعالى « فخرج منها خائفا يترقب » لأن مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجيزة قريبة من المدينة تسمى دموة وبها اليوم دير لليهود ، ومقدار خرابها اليوم مسيرة نصف يوم في نحوه وقد كانت عامرة في زمن ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم الى زمن بخت نصر فانه أخرب ديار مصر وبقيت على خرابه أربعين سنة وسبب خرابه أياها ان ملكها عصم منه اليهود ، حين التجأوا

الى مصر ولم يمكن منهم بخت نصر فقصده بخت نصر واباد دياره . ثم جاء الاسكندر بعد ذلك واستولى عليهم وعمرها الاسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك الى أن جاء الاسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك بالفسطاط . ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها مقر الملك الى اليوم . وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا فى الكتاب الكبير . ولنرجع الى وصف منف المسماة مصر القديمة

فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الامم أياها من تعفية آثارها وطمس رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وافساد ابنيتها وتشويه صورها ، مضافا الى ماعملته فيها اربعة الآف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب مايفوت فهم الفطن المتأمل ويحسر دون وصفه البليغ اللسن وكلما زدته تأملا زادك عجبا وكلما زدته نظرا زادك طربا ومهما استنبطت منه معنى أنباك بما هو اغرب ومهما استثرت منه علما دلك على ان وراءه ماهو أعظم

فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الاخضر ، وهو حجر واحد تسع أذرع ارتفاعا فى ثمان طولا فى سبع عرضاً قد حفر فى وسطه بيت قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين والباقى فضاء البيت ، وجميعه ظاهراً وباطناً منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم ، وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلى مطلعها وصور كثير من الكواكب والافلاك وصور الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيئات فمن بين قائم وماش وماد رجليه وضامهما ومشمر للخدمة وحامل آلات ومشير بها ، ينبى ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمال شريفة وهيآت فاضلة وأشارات إلى أسرار غامضة وانها لم تتخذ عبثاً ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن ، وقد كان هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمق طمعاً فى المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله وثقل بعضه على بعض فتصدع صدوعا طفيفة يسيرة . وهذا البيت قد كان فى هيكل عظيم مبنى بحجارة عاتية جافية على أتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة . وحجارة الهرم متواصلة فى جميع أقطار هذا الخراب ، وقد بقى فى بعضها حيطان ماثلة بتلك الحجارة الجافية وفى بعضها أساس وفى بعضها أطلال ورأيت عقد باب شاهقاً ركناه حجران فقط وأزججه حجر واحد قد سقط بين يديه وتجد هذه الحجارة مع

الهندام المحكم والوضع المتقن قد غير بين الحجرين منها نحو شبر فى ارتفاع أصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرته فعلمت أن ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات . بينها بايان يعمل بين الحجرين ثم يصب عليـــه الرصاص وقد تتبعها الانذال المغرورون فقلعوا منها ماشاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيراً من الحجارة حتى يصلوا اليها ولعمر الله قد بذلوا الجهد فى استخلاصها وأبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل فى الخساسة . وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير وأما اتقان أشكالها وأحكام هيآتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فوضع التعجب بالحقيقة . فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعا وكان مداه من جهة اليمين إلى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف الى الامام على تلك النسبة وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليـــه من الدهان الأحمر كأنه لم يزده تقادم الأيام الأجدة

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظم النظام الطبيعى والتناسب الحقيق ، وانت تعلم ان كل واحد من الأعضاء الآلية والمتشابهة له فى نفسه مقدار ما وله إلى سائر الاعضاء نسبة ما بذلك المقدار ، وبتلك النسبة تحصل حسن الهيئة وملاحة الصورة فان اختل شيء من ذلك حدث من القبح بمقدار الخلل . وقد احكم فى هذه الاصنام هذا النظام أحكاما أى أحكام فمن ذلك مقادير الاعضاء فى نفسها ثم نسب بعضها الى بعض ، فانك ترى الصنم قد يبتدىء بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ الصدر فى ارتفاع الترايب إلى الثندوتين فيرتفعان عما دونهما ويبرزان من سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان الى حد الحلمة ، ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم تنحدر إلى الموضع المطمئن عند القص وفرجة الزور وزور القلب وإلى تجعيد الاضلاع والتوائها كما هو موجود فى الحيوان الحقيق . ثم تنحدر الى مقاط الاضلاع ومراق البطن والتواء العصب وعضل البطن يميناً وشمالا وتوترها وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلى الاقراب ثم تحقيق السرة وتوتر العضل حولها ، ثم الانحدار الى الثنة والحالبين وعروق الحلب والخروج منه الى عظمى الوركين وكذلك تجد انفصال الكتف واتصاله بالعضد ثم بالساعد وانفتال حبل الذراع والكوع والكرسوع وابرة

المرفق ونهرى مفصل الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر العصب وغير ذلك مما يطول شرحه ، وقد صور كف بعضها قابضاً به على عمود قطره شبر كانه كتاب ، وصورت الغضون والأسارير التى تحدث فى جلدة الكف مما يلى الخنصر عند مايقبض الانسان كفه ، وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل مافى القوى البشرية أن تفعله وأتم مافى المواد الحجرية أن تقبله ولم يبق إلا صورة اللحم والدم وكذلك صورة الاذن وحفارها وتعاريجها على غاية التمثيل والتخييل

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جداً وقد حفظ فيهما النظام الطبيعى والتناسب الحيوانى مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقى جداً جداً وقد تكسرا وردما بالتراب

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف متطاول الشكل ومقداره نصف الاجر الكسرى بالعراق . ما أن طوب مصر اليوم نصف أجر العراق اليوم أيضاً

واذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الاذهان تقصر عن مقدار مايحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للاعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض ، فان النصف الأسفل من الانسان أعظم من النصف الأعلى منه اعنى التنور بمقدار معلوم ، بخلاف سائر الحيوان . والانسان المعتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده الى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر وربع وهكذا جميع عظام الصغار والكبار والقصب والسناش والسلاميات حافظة للنظام فى مقاديرها ونسب بعضها إلى بعض وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة كانخفاض اليافوخ عن ذروة الراس ونتوءه عما دونه وامتداد الجبهة والجبينين وتطامن الصدغين ونتوء عظمى الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الأنف ولين المارن وانفراج المنخرين

وامتداد الوترة ودقة الشفتين واستدارة الخلك وانخراط النسكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة ، وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل . وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا فى المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له يدل على ان القوم كان لهم حذاقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها ، وان جميع ما أدركوه وان جل فهو حقير تافه بالقياس الى الأمر الحقيق المطبوع وانما يستعظم ماعرفه الانسان منه بالقياس إلى ضعف قوته وبالقياس إلى باقى نوعه ممن يعجز عما قدر عليه ، كما يتعجب من النملة اذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل إذا حمل قناطير وهذا نص كلامه باصلاحى قال : من العجب أن نستحب علم أحكام التصاوير وعمل الاصنام وافراغها وتبين حكمته ولا نستحب معرفة الأشياء المقومة بالطبيعة ولا سيما إذا قوينا على معرفة عللها ولذلك لاينبغى لنا أن نكره النظر فى طباع الحيوان الحقير الذى ليس بكريم ولا يثقل ذلك علينا كما يثقل على الصبيان . ففى جميع الأشياء الطباعية شىء عجيب ولذلك ينبغى لنا أن نطلب معرفة طباع كل واحد من الحيوان ونعلم أن فى جميعه شيئاً طباعيا كريماً ، لانه لم يطبع شىء منها على وجه الباطل ولا كما جاء واتفق ولا بالبخت بل كل مايكون من قبيل الطباع فانما يكون لشىء أعنى لحال التمام ولذلك صار له مكان ومرتبة وفضيلة صالحة . فتبارك الله أحسن الخالقين

وأما باطن الحيوان وتجويفاته وما فيها من العجائب التى تشتمل على وصفها كتب التشريح لجالينوس وغيره وكتاب منافع الاعضاء له فان أيسر اليسير منه يبهت دونه المصور حسيراً ولا يجد له على ذلك ظهيراً ويعلم مصداق قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا

وأقول أن التعجب من الأمور الصناعية ايضا هى التعجب من الأمور الطباعية لان الأمور الصناعية هى بوجه ما طباعية وذلك أنها حادثة عن قوى طباعية وكما أن المهندس اذا حرك ثقلا عظيما استحق أن يتعجب منه فكذلك اذا صنع صورة من خشب مثلا تحرك تلك الصورة ثقلا ماكان ذلك المهندس أحرى أن يتعجب منه . والله خلقكم وما تعملون فتبارك من ملكوته ، سار فى عالمى الغيب والشهادة وفى أنفسكم أفلا تبصرون ونور جلاله ساطع فلا ينهنهه حجاب ، يعلم خائنة الاعين

وما تخفى الصدور . ومن أشباح الموجودات بقدرته قائمة وبارادته متحركة وساكنة وبنفاذ أمره فيها فرحة وباقترابها من حضرة قدسه مبتهجة ولتكثرها تشهد بوحدانيته وبتغيرها تقر بقدرته وأن من شيء الا يسبح بحمده .

ولنرجع الى حديثنا الاول فنقول هذه الأصنام مع كثرتها قد تركتها الايام الا الاقل منها جذاذا وغادرتها رمادا . ولقد شاهدت كبيراً منها وقد نحت من صلعته رحا قطرها ذراعان ولم يظهر فى صورته كبير تشويه ولا تغير بين ، ورأيت صنما وبين رجليه صنم متصل به صغير كأنه مولود بالقياس اليه ، وهو مع ذلك كأعظم رجل يكون وعليه من الملاحة والجمال مايشوق الناظر اليه لا يمل من ملاحظته . واتخاذ الاصنام قد كان فى ذلك الزمان شائعاً فى الارض عاما فى الامم ولهذا قال تعالى فى حق ابراهيم عليه السلام : ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين أى كان وحده فى زمنه موحداً فهو أمة بنفسه لاعتزاله اياهم وانفراده برأى يخالف آراءهم ، ولما رأى بنو اسرائيل تعظيم القبط هذه الاصنام وتبجيلهم اياها وعكوفهم عليها والفوا ذلك وانسوا به لطول مقامهم بينهم ثم رأوا قوما من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا آلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباطاً وصابئة نزعوا الى الاصل ومالوا الى سنة آبائهم القديمة فى اتخاذ التصاوير فى بيعهم وهيا كل عبادتهم وبالغوا فى ذلك وتفننوا فيه وربما تراموا فى الجهالة والنوك حتى يصوروا آلهتهم والملائكة حوله بزعمهم وجميع ذلك لبقايا فيهم من سنين أوائلهم وان كان الاوائل يكبرون الآله أن يدخل تحت ادراك عقلى وحسى فضلا عن تصوير ، وانما سهل على النصارى ذلك وأجرأهم عليه اعتقادهم الآلهية للبشر وقد حققنا القول فى ذلك فى مقالاتنا عليهم

وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها وان كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخاً يتنبه بها على الاحقاب . ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر . ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة على المآل . ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم

وصفاء فكرهم وخلو ذلك وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه وأما في زماننا هذا فترك الناس سدى وسرحوا هملا وفوضت اليهم شؤونهم فتحركوا بحسب أهوائهم وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل أمرء منهم على شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ماتسول له نفسه ويدعو اليه هواه . فلما رأوا آثارها هائلة راعهم منظرها وظنوا ظن السوء بمخبرها وكان جل انصراف ظنونهم الى معشوقهم وأجل الاشياء في قلوبهم وهو الدينار والدرهم كما قيل

وكل شيء رآه ظنه قدحا ٭ ٭ ٭ وان رأى ظل شخص ظنه الساقي

فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شيء مفطور في جبل أنه يفضي الى كنز وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه وهو مهلك عليه فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه ويبالغون في تهديمه ويفسدون صور الاصنام اعتقادا من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف ، وينقبون الاحجار نقب من لايتمارى أنها صناديق مقفلة على ذخائر ويسربون في قطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها

وهذه القطور منها مايدخل حبوا ومنها مايدخل زحفا ومنها مايدخل سحباً على الوجوه ومنها مضايق لاينسحب فيها الا الضرب الضئيل وأكثر ذلك انما هو قطور طبيعة الجبال

ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك ومن كان فقيرا قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بايمان يحلفها له وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه علامات يدعي أنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله . وما اقبح بعد ذلك مآله

ومما يقوي أطماعهم ويديم أصرارهم انهم يجدون نواويس تحت الارض فسيحة الارجاء محكمة البناء وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء الف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والاصبع في قطع دقاق ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم . ومن كان يتتبع هذه النواويس من الاعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الاكفان فما وجد فيه تماسكا اتخذه ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق القطارين ويوجد بعض موتاهم في توابيت من خشب

الجميز ثخين ويوجد بعضهم فى نواويس من حجارة إما رخام واما صوان وبعضهم فى أزيار ملومة عسلا ، وخبرنى الثقة أنهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الاهرام صادفوا دنا مختوماً ففضوه فاذا فيه عسل ، فأكلوا منه فعلق فى أصبع أحدهم شعر فجذبه فظهر لهم صبى صغير متماسك الاعضاء رطب البدن عليه شىء من الحلى والجوهر . وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر ، وقد يوجد منه أيضا على فرج المرأة وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشاء ، ربما وجد عنده شىء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده آلته التى كان يزاول بها العمل فى حياته . وخبرنى الثقة أنه وجد عند ميت منهم آلة مزين مسنا وموسى وعند آخر آلة الحجام وعند آخر آلة الحائك ويظهر من حالهم أنه قد كان من سنتهم أن يدفنوا مع الرجل آلته وماله . وسمعت أن طوائف من الحبشة هذه سنتهم ويتطيرون بمتاع الميت أن يمسوه أو يتصرفوا فيه وكان لنا قريب دخل الحبشة واكتسب مالا منه مائتى أوقية من الذهب ، وانه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فاخذه ممتنا عليهم

وقد كان من سنتهم والله اعلم ان يجعل مع الميت شىء من الذهب ، فخبرنى بعض قضاة بوصير وهى مجاورة لمدافنهم انهم نبشوا ثلاثة قبور فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع فيه ، وفى كل منها سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاثة فكان وزنها تسعة مثاقيل ، والحكايات فى ذلك اوسع من ان يحصرها هذا الكتاب

واما ما يوجد فى اجوافهم وادمغتهم من الشىء الذى يسمونه موميا فكثير جدا ، يجلبه اهل الريف الى المدينة ويباع بالشىء النزر ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس ملؤة منه بنصف درهم مصرى

وارانى بائعه جولقا ملوءا من ذلك فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا المومیا ورايته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كانها جزء منه ، ورايت ايضا على قحف الراس اثر ثوب الكفن واثر النساجة قد انتقش فيه كما يرسم على الشمع اذا ختمت به على ثوب وهذا المومياء هو اسود كالقار ورايته اذا اشتد عليه حر الصيف يجرى ويلعق بما يدنو منه واذا طرح على الجمر غلى ودخن وشممت منه رائحة القار او الزفت والغالب انه زفت ومر

واما المومیا بالحقیق فشیء ینحدر من رءوس الجبال مع المیاه ثم یجمد قال ویفوح منه رائحة زفت مخلوط بقفر وقال جالینوس المومیا یخرج من العیون قال والنفط . وقال غیره هو صنف من القار ویسمی حیض الجبال وهذا الذی یو فی تحاویف الموتی بمصر لا یبعد عن طباع المومیا وان یستعمل بدله اذا تعذر

ومن أعجب ما یوجد فی مدافنهم اصناف الحیوان من الطیر والوحش والحشرات وقد کفن الواحد منها فی کذا وکذا ثوبا وهو محتاط علیه محتفظ به . وخبرنی الثقات وجدوا بیتا تحت الارض محکما ففتحوه فوجدوا فیه لفائف ثیاب القنب وقد تقمط فازالوها مع کثرتها فوجدوا تحتها عجلا صحیحا قد احکم تقمیطه وحدثنی آخرون وجدوا صقرا فنشروا عنه من لفائف الثیاب حتی عیوا فوجدوا ، لم تسقط منه ریشة وحکی لی مثل ذلک عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغیر ذلک مما یطول شرحه ویهجن ذکره

وحکی لی الامیر الصادق انه کان بقوص فجاء الیه من یبحث عن المطالب فذکر له انهم انخسفت بهم هوة موهمة ان فیها ، دفینا فخرج معهم بجماعة متسلحین وحفروا فوجدوا زیرا کبیرا موثق الرأس بالجص ، ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فیه کالاصابع مکفنا بخرق فحلوه فوجدوا تحتها صیرا وهو سمک صغار وقد صار کالهباء اذا نفطار فنقلوا الزیر الی مدینة قوص بین یدی الوالی واجتمع علیه نحو مائة رجل فحلوا الجمیع حتی اتوا علی آخره وهو کله صبر مکفن لیس فیه سوی ذلک

ورایت انا بعد ذلک فی مدافنهم ببوصیر من العجایب مالا یفی به هذا الکتاب فمن ذلک انی وجدت فی هذه المدافن مغائر تحت الارض مبنیة باتقان وفیها رمم محنطة ، وفی کل مغارة عدد لایحصی ومن المغائر ما هو مملوء برمم الکلاب ، ومنها ما هو مملوء برمم البقر ، ومنها ما فیه رمم السنانیر والجمیع مکفن بخرق القنب ورایت شیئا من عظام بنی ادم وقد تمشق حتی صار کالیف الابیض لقدمه ، ومع ذلک فاکثر الرمم التی رایتها صلبة متماسکة جدا یظهر علیها من الطراءة اکثر من رمم الهالکین سنه سبع وتسعین وخمسمایة الاتی ذکرها آخر کتابنا هذا ، ولاسیما ما کان من الرمم القدیمة قد انصبغ بالزفت والقطران فانک تجدها فی لون الحدید وصلابته ورزانته ورایت من جماجم البقر ما شاء الله وکذلک جماجم الغنم وفرقت بین رؤس المعز

والضأن وبين رؤوس البقر والثيران ، ووجدت لحم البقر قد التصق بالاكفان حتى صار قطعة واحدة حمراء تقرب الى السواد ، ويخرج العظم من تحتها ابيض وبعض العظام احمر وبعضها اسود وكذلك فى عظام الادمى ولا شك ان الاكفان كانت تبل بالصبر والقطران وتشرب به ثم يدفن بها فلذلك يصبغ اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صبغته فاحمر واسود . ووجدت فى عدة مواضع تلالا من رمم الكلاب لعله يكون فى جملتها مائة الف رأس كلب او يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب فان جماعة يجعلون مكاسبهم من هذه القبور واخذ ما سنح لهم من الخشب والخرق وغيره . واستقريت جميع المواضع المحكمة فلم اجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقى ذلك فى نفسى . فسألت مشايخ بوصير فبادروا الى اخبارى بأنهم قد تقدمت فكرتهم فى ذلك واستقراؤهم اياه فلم يجدوه . واكثر توابيتهم من خشب الجميز وفيه القوى الصلب ومنه ما صار فى درجة الرماد وخبرنى قضاة بوصير بعجائب منها انهم وجدوا ناووسا من حجر ففضوه فلقوا فيه ناووسا ففضوه فوجدوا فيه تابوتا ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهى سام ابرص مكفنة محتاطا عليها معنيا بها

ووجدنا عند بوصير اهراما كثيرة منها هرم قد انهدم وبقى قلبه فقسناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمى الجيزة

وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بعين شمس وبالبرابى وبغيرها

وأعلم ان الاهرام لم أجد لها ذكراً فى التوراة ولا فى غيرها ولا رأيت ارسطو ذكرها ، وانما قال فى اثناء قوله فى السياسة كما كان من سنة المصريين البناء ، واللاسكندر الأفروذيسى تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض بشىء من أخبار القبط ، وأما جالينوس فرأيته ذكر الاهرام فى موضع واحد وجعله من هرم الشيخوخة ، وقال فى كتاب شرح الأهوية والبلدان لبقراط فمن أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر فان أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة . هذا معنى قوله ، وقال فى كتاب عمل التشريح فمن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيأتها فينبغى له أن يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء

وأعلم أن القبط بمصر نظير النبط بالعراق ومنف نظيرة بابل والروم والاقاصر بمصر نظير الفرس والاكاسرة بالعراق والاسكندرية نظير المدائن . والفسطاط نظير بغداد . والجميع اليوم بعد الاسلام وتشمله دعوة بني العباس

الفصل الخامس

فيما شوهد بها من غرائب الابنية والسفن

وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب فى الغاية ، حتى أنهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم أقبح وغالب سكناهم فى الاعالى ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا إلا وتجد فيه باذاهيج وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمس مائة وان كانت باذا هيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق

ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف الى المعين فتغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد الى العرصة وهى تل تراب أو نحوه فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب مايقترح عليه ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصة فيحمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك

وأما المسناة فيسمونها الرزينة ولهم فى بنائها اتقان حسن ، وصفته أن يحفر الاساس حتى تظهر النداوة وثرير الماء فحينئذ يوضع ملبن من خشب الجميز أو نحوه على تلك الارض الندية بعد ماتمهد ، ويكون عرضه نحو ثلثى ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذى يجعل فى قعر الآبار ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة التنور . فيأتى الغواصون وينزلون هذه البير ويحفرونها وكلما نبع الماء